الأفغان.. والشتاء..!

تعودنا في السنوات الماضية نمطًا محددًا من إخواننا الأفغان وهم يقودون مسيرة الجهاد ضد المعتدين على بلادهم المهددين لمبادئهم، المنذرين بالخطر الداهم، الذي أراد الله له أن يصل إلى حدٍّ من التفكك والتفتت كما يتفتت الحجر، هذا النمط للمتابعين معروف، فعندما يحصل فصل الشتاء يكون هناك شبه توقف تام للعمليات الجهادية داخل أفغانستان بسبب حلول البرد والجليد، وهذا يعني أن يبقى المجاهدون في مراكزهم في الداخل أو عودة بعض منهم إلى أهلهم في المخيمات داخل الباكستان.

والذي يمر على المخيمات، ويقف على طريقة الحياة هناك يلحظ بوضوح عيشة الكفاف التي تعيشها الأرامل واليتامى والمعاقون والقاعدون عن القتال لظروفهم الخاصة. والمخيمات كانت في البداية خيامًا متراصة غير واقية في الغالب من البرد أو الحر أو رشات المطر، وعندما بدا أن العمليات ستطّرد وأن العودة إلى الديار ستستغرق وقتًا غير يسير بدأ اللاجئون/ المهاجرون يبنون بيوتًا من الطين، تجتمع فيها أربع عائلات أحيانًا، ومنافعهم مشتركة والصرف غير صحي، والأطفال يرتعون ببراءتهم في جو غير صحي، وفيهم من هم في أعمار الدراسة، ولكن ضيق ذات اليد يحول دون انخراطهم في المدارس مع أنهم هم الجيل القادم الذي سيدير أفغانستان، ويصعب على المرء أن يقبل أن تدار بلاد إسلامية مثل أفغانستان من قبل جيل تعرض للحرمان الغذائي والصحي والعلمي والثقافي مدة وصلت حتى الآن إلى ثلاثة عشر عامًا هي عمر الجهاد على أرض الأفغان.

ويعرف عن الأفغان عادات محلية يتمسكون بها ويصعب عليهم تركها

والتخلي عنها، وربما كان من هذه العادات عزوف النساء عن الزواج بعد فقد الزوج الأول بموت أو طلاق، وهذا يعني أن هناك أكثر من مليون أرملة أفغانية إذا افترضنا أن مليونًا من المليون وستمائة ألف من المحسوبين ـ إن شاء الله ـ من الشهداء كانوا متزوجين. وهذا يعني عبئًا كبيرًا على هؤلاء النسوة، إذ عليهن البحث عن وسيلة العيش؛ إما في كنف الأهل أو الأقارب، وتأبى الأفغانية أن تمد يدها للناس، ولذا كان لزامًا على هيئات الإغاثة مراعاة هذه الحالة والعمل على الإسهام في حلها من خلال البحث عن وسيلة عمل لهؤلاء الأرامل، وأظن أن لجنة الإغاثة السعودية المنبثقة عن الهيئة العامة لاستقبال التبرعات للمجاهدين الأفغان، قد أسهمت في رسم حل لهذه الحالة من خلال تكليف الأرامل بخياطة الفرش «المطارح» التي يستفيد منها المهاجرون والمجاهدون، وتقوم النساء بهذا العمل وهن في بيوتهن وتجلب لهن المواد الخام، ويعطين أجرة على كل قطعة تنهيها الأرملة دون الإخلال بواجباتها المنزلية تجاه أبنائها أو أهلها أو أهل زوجها الراحل. وهذا العمل يساهم في التغلب على برد الشتاء، ولا أزعم أن جهود اللجنة هذه كافية ولكنها على أية حال تساهم في هذا.

ومن المعلوم أن ويلات الحرب الأفغانية مع الشيوعيين قد خلفت مجموعة غير يسيرة من المعاقين ممن قد فقدوا أطرافًا لهم مما أعاقهم عن مواصلة الجهاد وحال دون قدرتهم على العمل بصورة فاعلة فكانوا في الوقت الراهن عبئًا على المجتمع الذي لا يجد عملاً للقادرين ناهيك عن المقعدين أو المعاقين، وهؤلاء يتأثرون من هذا الوضع في الصيف والشتاء، ولكنهم في الشتاء أكثر تأثرًا حسيًا ونفسيًا في وقت واحد. وبخاصة أنهم يشعرون بأنهم أضحوا عالة على عملية مناهضة المعتدين عليهم وأنهم وكأنهم من المنسيين، وليس الحال كذلك على الإطلاق ولكنهم لا يملكون إلا أن يشعروا

بهذا الشعور دون سماع كلمات التعاطف والربت على الأكتاف .

إن هـؤلاء جميعًا يعـدون بالمـلايين في أرض غير أرضهم وتحت إدارة غيـر إدارتهم هي لم تقصر معهم بحال ولكن لسان حالهم يقول :

بلادي وإن جارت عليَّ عزيزة وأهلي وإن ضنوا عليَّ كرام

وهؤلاء جميعًـا يعيشون على بركة من الله تعـالى ثم على دعم إخوان لهم في كل مكـان من أرض المسلمين ومن هــذا البلـد الطيب المعطـاء البـاذل على المستوى الـرسمي والشعبي ، ولذا فإن عـزاءهم في محنتهم هـذه أنهم وجدوا من يفهم وضعهم ويتصـرف معهم بمـوجب هذا الفهم فـي وقت يتصرف فيـه الآخرون بموجب ما يحصلون عليه من فـوائد تدخل أحيانًا في الجانب العقدي حينما تعمد بعض هيئات الإغاثة العالميـة إلى محاولة تنصير ذوي الحاجة بما تقدمه من طعام وكساء وعلاج على عادة هذه الهيئات في كل مكان .

إن هذه البـلاد لا تمنّ على الآخـرين بما يبـذله أبنـاؤها ؛ لأن هذا جـزء من منطلقاتهم الدينية التي تؤكد لهم دائمًا أنهم مؤتمنون على المال الذي توافر في أيديهـم ، فإن هم بذلـوا منه في وجوه الخيـر زاد بين أيديهم ، وإن هـم أمسكوا وأحجموا عن الإنفاق تلف مـا بين أيديهم ، ولذا يأتي البذل محاطًـا بالكتمان فلا يعلم منه إلا القليل .

وهـذه المواقف المـاديـة والمعنويـة تهـوّن على الأفغـان شتاءهم في بـرده القارس القـارص ، وتهوّن على الأيتام يُتمهم عندمـا يجدون من يكفلهم ويهيئ لهم الجـو العائلي المنـاسب ، وتهوّن على الأرامل تعـاملهن مع الحياة حينمـا يدركن أنهن لم يفقدن العشيـر ، فقد أبدلهن الله بأكثر من عشير ، إخـوة إيمانية لا جزاء لها إلا الأجر من الله تعالى . وتهوّن على المعاق إعاقته عندما يشعر أنه إنما فقـد جزءًا من جسمـه في سبيل الله في وقت يتمنى فيه الآخـرون أن يفقدوا

حياتهم كلها في سبيل الله .

لقد زرت حبيبًا في المستشفى العسكري في الرياض فوجدت أحد المرضى الأفغان وهو يمشي على العكازات ، وقد خرج من الهواء الطلق فلوحت له بيدي مسلمًا من بعد ، فكم كانت سعادته حينما واجهه مثل هذا الموقف مشعرًا إياه بنبل ما أقدم عليه ، وأنه ليس وحده في الميدان ، بل هناك الداعمون له من بعيد بالدعاء أولاً ثم بالبذل ثانيًا ، فليستمر هذا الدعم طمعًا في تخفيف حدة الشتاء على الأفغان ، زادكم الله دفئًا على دفء ، وكان الله في عون الجميع .